

التربية وآلية تحويل المجتمع عند محمد عبده والطاهر الحدّاد

زينب الشّارني - بن سعيد
أستاذة الفلسفة - تونس

لقد احاط الفكر الاصلاحي العربي في أواخر القرن الماضي وفي بداية هذا القرن بأهم المسائل الاجتماعية التي واجهتها الشعوب العربية المستعمرة آنذاك . ولقد واكب الاحداث الهامة التي اهتزت من أجلها هذه المجتمعات جدال ونظر افضى الى بلورة إشكليات منها ما تعلق بخاصيات البناء السياسي الملائم لهذه الارضيات الاجتماعية المتقلبة في قيمها ونموها ومنها ما ارتبط بالاهداف التاريخية الاساسية التي استدعتها حركة وطنية مناهضة للاستعمار . غير أن النسق الفكري الحامل لهذه الاشكاليات الكبرى غير اتجاه بحثنا ، فلقد جرننا فعلا الى الانكباب على مسائل اخرى ابسط من الاولى نخص بالذكر منها مفاهيم التربية والنفس والفرد . لكن سير نظرنا جعلنا نستنتج أن المعايير النظرية المذكورة تمثل أفكارا مركزية انبنت عليها استقرارات فرعية تخص المسائل الاساسية المذكورة آنفا .

وعلى سبيل المثال (الذي سنحله ضمن تدخلنا) نذكر أن محاولة فهمنا لآليات تحويل المجتمع عند محمد عبده والطاهر الحداد أحالتنا الى البحث في مسألة التربية من حيث انها تمثل العمود الفقري الذي تمحورت حوله جل المفاهيم التي عينت الرؤية المعرفية عند المفكرين السالفي الذكر وقد أدى بنا هذا الفحص النظري الى القيام بالملاحظات التالية :

1) ان وقوفنا عند اشكالية التاريخ يخضع لدافع فلسفي اذ لمسنا أن هذه المسألة مثيرة للتقييم والنقد الابستمولوجي من حيث انها تتضمن نموذجا معرفيا لتحويل المجتمعات وتكشف لنا بصفة تدريجية ان النسق المعرفي الطاغي داخل هاتين النظرتين للمجتمع ولتحولاته لا يحتوي على رؤية وضعية . فالاستنتاجات التي يعتمدها لا تقوم على الربط بين سببيات موضوعية تصاغ مثلا في شكل قوانين للتاريخ ، إن تفاسير هذا النسق تحيلنا الى ضرورة تحديد منيع أساسي للتحولات ومفهوم تفسيري مركزي لآلياتها وهو التربية ، ويبدو واضحا ان العلل والمفاهيم التي يفرزها تخضع الى رؤية معرفية مثالية لفهم التاريخ . بحيث تظهر التحولات الهامة التي من الممكن أن تطرأ على مجتمع معين لا كنتيجة لتحديدية اجتماعية بل كافتراض للبنية النفسية التي تفاعلت مع معايير التأديب واستوعبت نواميسه وتعاليمه بحيث يصير الزمن موثوقا في سيره

الى الحالة التي تكون عليها النفوس فاذا ارتقت هذه الأخيرة يكون الزمن زمن النهضة والحضارة اي زمن البعث واذا تدهورت زمن الانحطاط واليأس .

(2) نلاحظ من ناحية أخرى أن الجوانب اللا علمية لهذه الرؤى تتأكد عندما نفهم ان النظريات التي تقر بإمكانية تحويل المجتمع بواسطة التربية تعتقد ضمناً في ان تطويره يستمد آلياته من عالم يوجد خارج عالم الحياة الاجتماعية ، إن هذا الفهم مسيطر داخل جل النظريات التي رأت في التربية الوسيط بين المؤسسات الاجتماعية والمعارف المتعالية او التعاليم الدينية الراقية التي صاغها او تقبلها عابرة المجتمع ، وسيضع هؤلاء النوابغ بمحط الهامهم وانطلاقاً من التعاليم السماوية ما يجب ان يعرف ويبلغ الى النفوس الضالة والتائهة هذا مع الاشارة الى ان افلاطون قد نبهنا في الماضي الى أن التربية تستنبط معاييرها من النفس ذاتها اذ يبدو واضحاً بالنسبة اليه انها لا تضيف شيئاً للنفس لأنها تصوغ قواعدها انطلاقاً من الافكار القبلية الكامنة فيها قبل أن تبعث الى الوجود . (1)

(3) وتجربنا الملاحظة السابقة لابداء تقييم آخر لموضوعنا : إن التربية تشكل بفضل الوظائف المسندة اليها وسيطا بين المعرفة وسلوك العموم أي بين البشر المكتملي الصفات الروحانية والقادرين على تسيير المجتمع وبالتالي على الفعل الايجابي الواعي في التاريخ ، والمواطنون الرؤوسين اصحاب الوظائف اليدوية الحقيمة الحاملي عبء المجتمع وبالتالي ثقل التاريخ بين المواطنة والانسانية تطرح اذن إشكالية التربية الاداة الفاعلة في التاريخ .

1 (تحديد مفهوم التربية :

تأرجحت مواقف عبده بين السياسة والتربية لكن وجهة نظره المسيطرة تمثلت في انحيازه لجمال التكوين والتهذيب معتبرا اياه الاداة الاساسية لمواجهة الاستعمار وقد ادت به استنتاجاته هذه الى اختلاف جوهري في الموقف مع جمال الدين الافغاني يمكن ان نلمسه في وصفه التالي : « إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه وجهه للتعليم والتربية لافاد الاسلام اكبر فائدة ، وقد عرضت عليه عندما كنا آخر بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربي ما نختار من التلاميذ على مشاربنا فقال جمال الدين انما انت مثبط » . (2)

إن الوسيلة الناجعة للتصدي للاستعمار الانقليزي ولقلب سير التاريخ تبقى وسيلة نظرية مجسمة في مجموعة معارف قابلة للتحويل الى معايير للسلوك « انه لا سبيل لمواجهة النفوذ الاجنبي في لبنان الا بالتربية ومدافعة الاجانب الا بمثل سلاحهم ... وما اسهل سد تلك المنافذ على اولئك الاجانب بانشاء معهد للتربية العثمانية » (3)

ان التربية التي ارادها عبده تستند الى مبادئ الدين انها تتجه الى النفس لتؤد بها ولتعلمها وخاصة لتوقض فيها مشاعر الانتماء للملة الاسلامية ، إن وظيفة التربية تتمثل في استكمال النفس بأداب الدين . فتجاوز نقائص النفس يكون بطريقتين :

1 (إما برفض التقليد لتدعيم الجوانب الروحانية في النفس باستعمال العقل في صالح « النفع الجماعي »

2 (أو « باستفزاز » مواقف الحمية ومعاصم الانفة المالية (وهو الهدف الاساسي من تربية اولاد الفقراء) . فعلا إن استكمال النفس مرتبط داخل هذا التصور بإمكانية تقبل المبادئ الدينية إما بواسطة العقل أو اعتمادا على مبدأ « الاستحسان العقلي » أداة النظر المستعملة داخل هذا المجال بحيث نلاحظ ان ملكة الاستدلال وادراك الهويات المذكورة ستلعب وظيفة التوفيق بين الصالح من وجهة نظر العقيدة والمحذ من وجهة نظر الحياة العملية وتنطبع اذن داخل النفس بواسطة الاقيسة أو الحماس لمبادئ التربية فضيلة تكتسي طابع الخلق الذي سيقود الافعال الصغيرة منها والكبيرة : « نيل المعالي يكون بالفضيلة فاذا توفرت ينمو العمران وتتكون الامة والاجيال التي ستمارس القوة والسياسة » (4)

أما داخل تفكير الحداد بقدر وضعنا بحثنا في آلية تحويل المجتمع أمام انزياح متواصل اذ تراكمت الحلول المتعلقة بالادوات الفاعلة في التاريخ حتى برز الاقتراح النهائي وهو التربية وبصفة ادق تربية المرأة والاطفال لكن الحداد اعتقد في البداية ان العلم يمثل أداة من ادوات تغيير الواقع وقد كان فعلا يظن ككل مفكري النهضة ان هذا المجال المقرون في أذهان العرب بالاستيطان الاستعماري ناجع لتغيير الواقع لكن سرعان ما يبتعد الحداد عن هذا الحل لأن التونسيين فشلوا في محاولاتهم للتمكن من العلم فنراه ينقلنا من مجال هذه العلوم النظرية الوضعية (سلاح الاستعمار الى ميدان التربية : « إن خيبتنا في العلم ما نشأت الا عن تربيتنا الخاملة في الوسط العائلي » (5) والتربية بدورها لا تستدعي النظريات المعقدة لتبليغها بل تكتفي بالمعارف ذات الابعاد التطبيقية (كالعلوم والسياسة والاقتصاد والتاريخ) فمن الممكن لهذه المعارف النافذة بسهولة في الواقع أن تتحول الى « روح » و « إرادة » اي الى شعور وتصور جماعي راسخ في النفوس ، « إن العلم مهما بلغت درجته ليس الا سلاحا يحتاج الى روح وإرادة يستعملانه للظفر بالحياة مهما تسمرت طرقها وعظمت تكاليفها . وهذه الروح وتلك الارادة ليستا الا ثمرا خالصا للتربية الفاضلة التي تبتدئ غرسا وتنتهي شجرة » اصلها ثابت وفرعها في السماء » . (6)

إن الوسيلة الناجعة لقلب سير الاوضاع اذن بالنسبة للحداد ايضا هي التربية التي تحاكي النفوس وتهذب وتعلم حتى تولد روحا جماعيا مجسما في فضيلة وعقلنة جديدتين : « إن قيام حركة اجتماعية في تونس على اساس التعاون العام بين طبقات لا تبعد كثيرا عن بعضها يكون من مقاصدها بث الروح القيمة ومساعدة التعليم والتهديب العمومي سينجر عنه نفع للبلاد بصفة عمومية ويهيئها لقبول « المثال الاعلى للحياة الاشتراكية بدل ان تنتهى للبعد ما بينها واتساع هوة الخلاف » (7) هذه هي الخاتمة التي يصل اليها الحداد في كتاب « العمال التونسيون » .

التربية أداة ترسيخ الروح - العقيدة :

قلنا ان من الاهداف المباشرة التي تطمح اليها التربية هي تحويل المبادئ العامة

التي صاغتها العقيدة « (عبده) أو « العلوم التطبيقية » (الحداد) الى اخلاقية تلقائية تكيف السلوك . ففي هذه الحالة تنشأ في النفوس هيئة تنبثق عنها الافعال بحيث تبدو وكأنها تنبع من احساس وجداني مقدس يماثل الاحاسيس العقائدية . فما يمكن ان نستنتج من هذه الملاحظة هو ان النموذج الفكري الذي وقعت ضمنه صياغة وظيفة التربية هو نموذج ديني ، فالافكار الضمنية التي قادت هذا التصور عينت للتربية دور الوسيط بين معارف وقيم متعالية ونموذجية والنفوس التائهة التي يشترط لتقويمها تبني هذه التعاليم النظرية دون نقد واعادة نظر . فنجد انفسنا فعلا داخل هذه الرؤية أمام العلم - الكلي او الكلام - المعرفة الذي يجب أن يبلغ للعموم بواسطة التربية حتى يتحول الى تصور حدسي غير قابل للنقد .

ان هدف التربية لا يتمثل هنا كما هو معهود في تلقين المعارف او تحديد معايير ارشاد السلوك فقط بل وظيفته هي ترسيخ شعور باطني يدفع بنا الى المجد ويحثنا على التفاعل الايجابي مع الغير ، او ليس هدف التربية عند عبده بالنسبة لاولاد الفقراء هو « توليد مواقف الحمية ومعاصم الانفة المالية » حتى يسلموا ارواحهم دون قيد وبكل اتدفاع ذخرا لملتهم ؟ ويمكن ايضا أن نلاحظ أن هذا الهدف لا يمس اولاد الفقراء فقط انه يهم « طبقة المعلمين والمرشدين » اذ يجب على التعليم المخصص لهم حتى ولو اعتمد الاستدلالات العقلية ان يقتحم اعماق النفس فيصاغ في اسلوب خطابي حتى تهتز القلوب وتستفزها (الخطابة) من مآثر الخمول « اي » حتى تحرك الساكن وتولد الحماس الديني وبالتالي الوطني

وقد تبين لنا أن نفس المفاهيم هي التي قادت رؤية الحداد للوظائف النفسية للتربية . إن هذا الأخير ينفر مجالات المعارف المجردة التي لا تنطبع في النفس . فنراه يقول : « العلم وحده لا يتعدى حدود التصور » (8) التربية تتجاوز مرحلة تلقين التصورات ان امتداداتها نفسية وعملية فهي التي تمد الافراد بروح التآخي والتعاون التي ستجسم في الارادة او الفعل .

إننا نجد التعبير الواضح عن هذه الآلية الخاصة للمبادئ التي تلقنها التربية داخل الوظيفة التي يسندها لها الغزالي في الجزء الخامس من كتاب « احياء علوم الدين » . إن دور التربية يتمثل بالنسبة اليه في معالجة النفس بالمعارف حتى تظفر بحسن الخلق « والخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال » (9) فلا يمكن أن نقول ان التربية فعلت فعلها الا بعد أن تطلع النفس بتعاليمها . فعلى العلم اذن ان يحدد الجميل والقبيح وان يتحول الى استعداد ذاتي شعوري يضبط الصواب ويمثل اليه بصفة حدسية « الامساك والبذل والخلق (هي) عبارة عن هيئة في النفس وصورتها الباطنية » (10) .

فليست التربية في آخر المطاف الا الوسيط بين العلم والفعل أي بين المعارف المتعالية التي تتحول الى معتقدات فتكيف الممارسات العملية . فوظائف هذه الاحيرة لا تتمثل في التدريب على النقد والفهم وبالتالي على الانتقاء والتمييز انها بالعكس فنمي المشاعر والافكار القطعية المتحولة لكل تلقائية الى نشاط عملي .

- المعرفة والمجتمع والمستقبل المطلق :

ان التربية حسب هذه النظريات لا تساهم فقط في تكوين المجموعات الحاملة للتاريخ (المواطنين) والمؤهلة للمشاركة في تطويره باستعدادها وحماسها انها ايضا الاداة المكونة للفئات الفاعلة بصفة ايجابية في التاريخ - انها تنشئ مواطنًا و إنسانًا - أما الانسان فيمثل كائنًا نموذجيًا تسند له (حسب عبده) المهام الاجتماعية الاساسية اي وظيفة قلب التاريخ وتسييره فتكون التربية اذن الوسيلة التي بواسطتها يستكمل بها الانسان انسانيته : « الانسان لا يكون انسانا الا بالتربية اذا تربى احب نفسه لاجل ان يحب غيره واحب غيره لاجل ان يحب نفسه » (11) وتستكمل النفس صفاتها باستيعاب معارف متعالية . فتتجاوز التقليد عرض اعمال العقل وفهم الكلام ثم تنقيته من المعلومات الدخيلة التي تشوّهه ، ثم التطلع الى معرفة الوجود بمجمله : « إن المسلمين لما كانوا علماء فيما بينهم كانوا علماء الكون وائمة العالم » .

ان العارف بخفايا الخطاب الديني بعد اطلاعه على ما هو موجود ضمن العالم الكبير (الكون) سيتبين معالم « العالم الآخر الصغير » اي الانسان . « امر التربية هوكل شيء وعليه بين كل شيء كل مفقود يفقد بفقد العلم وكل موجود يوجد بوجود العلم » لمعرفة تصوغ الوجود وجود . الكون والانسان . وفعلًا فإن الكائن البشري الذي يتمكن من المعرفة ومن مناهجها يدرك أنه الوحيد القادر على الربط مع المطلق بفكره وعمله وبالتالي على الابتكار وصنع الواقع ، « عندها يحب الانسان غيره لأجل أن يحب نفسه » اذ تتجانس نفسه مع نفس الآخر بعد ادراكه لقوة الخلق المشابهة بينهما .

إن هذه النفوس التي استكملت صفاتها بعد ان تطلعت على الكون هي النفوس الخلاقة التي ستوكل اليها مهمة بناء المجتمع وتسييره ووضع الاسس التشريعية « للمدن الفاضلة » (12)

لكن من الضروري أن نلاحظ ان مهمة تغيير الواقع التاريخي للمجتمعات العربية ليست مهمة الاثرياء واصحاب المعارف فقط انها ايضا مهمة كل فرد .

فالتربية تتجه لكل نفس لكي تثير شعوره بالمسؤولية امام التاريخ . « إن المعروف في سير الامم وسنن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية (اي الثورة عليها) والزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشأ فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام » (13) إن مهمة التاريخ لا تخص الساسة فقط انها المسؤولية الكبرى للمقاة على عاتق كل فرد ، فبواسطة الفضيلة يطور كل فرد مداركه ويحدد النفع الخاص الذي يجب ان يتلاءم مع المنفعة العامة - إن تدهور النفوس لا يؤدي الا الى الركود الاجتماعي وسيطرة الخضوع والذل بينما نمو كل نفس بواسطة التربية سيمثل المنبع الأول للرفض بعد الفهم والاختبار المسؤول . إن النص التالي لعبده يبين بكل وضوح بأن المسؤولية امام التاريخ تبقى بدون اي شك مسؤولية كل فرد « اذا كان الانسان فاقدا للفضيلة وخاليا من كل صفة للانسانية تكون في مثل هذه البلاد الطبقات على الدوام ثابتة افرادها على حالة واحدة في أزمنة كثيرة ، فالفقراء يبقون على فقرهم

والاغنياء يدومون على غناهم وقليل أن يصير الفقير غنيا . ويلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في نفوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلى ... » (14) فاذا رسخت الفضيلة في كل فرد واذا تمكن من تلقاء نفسه المهذبة الى تحديد واجبه وتعيين مسؤوليته وضبط النفع الخاص الذي يجب أن يتلاءم مع النفع العام بتطور المجتمع ؟ تقوى في الامة دعائم العمران وتثبت فيها اصول السعادة ... وعند ذلك تكون للامة الاحوال التي نسميها بالرفاهية والعزة والسطوة والقوة والشوكة والثورة والرئاسة والسياسة وغير ذلك من الصفات التي تمدح بها ويعلو شأنها « (15) إن آلية الاعتناق عند عبده مردها الفرد فان توفرت النفوس الفاضلة والشاعرة بصفة مستقلة بالواجب الذي يتلاءم ومصلحة الامة تنعقد هذه الاخيرة وترتقي الى الرفاهية والعزة أي مستقبل الخير الاعلى الذي يعجز عبده على ايجاد الاوصاف المادية الدقيقة لتحديد خاصياته فيسلط عليه شتى النعوت التي تجعل منه مستقبل الخير المطلق أي « القوة والشوكة والغنى والثروة والرئاسة » ... وكل الصفات التي من الممكن ان تمدح لها الامة ويعلو شأنها أي الربط مع المستقبل الجامع المنعدم السمات الموضوعية

إن تصور التحول التاريخي يخضع عند عبده لنموذج فكري لاهوتي ، أولا نلمس هنا من وراء مسؤولية الفرد المحدد لواجباته والمدرک لنواميس افعاله المتلائمة مع واجبات امته صورة المؤمن المتقبل لاوامر ربه وتعاليمه والمسؤول بمفرده امام خالفه عند تحديده لاختياراته وللמידى التي تقود افعاله والتي بمقتضاها يعاقب او يجازي ؟ او لا تعيد فكرة التجانس بين المنفعة الفردية والجماعية الرسم الذهني الديني الذي يفترض ان اختيارات المسلم يجب ان تطابق التعاليم المشتركة للامة الاسلامية ؟

وهذا المستقبل المطلق المبهم الذي يجب أن يتدرج اليه السير التاريخي للامة أولا ندرك بواسطة الاوصاف التي يتضمنها بأنه يعبر عن فكرة المستقبل الافضل الذي يتهيأ له المسلم بافعاله الحرة والمسؤولة ، أي المستقبل الأخرى .
الحّدَاد : : إن هذه الآلية التي تحدد العلاقة بين الفرد (المذهب) وتحولات التاريخ التي لمسناها عند محمد عبده ، تقود بدورها تصوّر الحّدَاد للتحول الاجتماعي ، لقد تقضي تكهنات الحّدَاد بالتطورات التاريخية الى نوع من الشك وخيبة الأمل في الدور التاريخي الذي من الممكن ان تضطلع به القوى الجماعية ، إنه يرفض اسناد مهمة التطور الاجتماعي لقوة سياسية مركزية او لفئة من المستثمرين الوطنيين ، ان التنافس على الكسب يخلق للفئات المالكة كثيرا من أسباب الخلاف وأكثر من ذلك فان « نفرة وانقطاع الرابطة ليست خاصة بأهل الاعمال في اعمالهم هي عامة في التونسيين » (16) لكن يشترط في المجموعات لكي تكون فاعلة في الواقع ان تتناظر جهودها على أساس مبادئ التعاون والاشترك في المنفعة واستقلال الفكر وحرية العمل .

ظاهرة التشردم والانانية الفردية هي ايضا من صفات المثقفين العمليين (النقايبين او المتجمعين داخل منظمات مهنية (محامين واطباء ورجال قضاء ...) ولذا وبعد افتراضة لنجاعته التاريخية يترك جانبا هذا الاحتمال « إن المثقفين

يحترفون الاحتراف الشخصي ويبقون عاجزين على تأسيس الاعمال العمومية » (17)
إن حياتنا الانفرادية يظهر حتى الآن انها لم تنتهيا القبول العمل التعاوني لخير
المجموع » (18)

لقد وجدنا انفسنا داخل هذه الرؤى للتاريخ أمام انزياح متواصل نقلنا من احتمال
الفعل التاريخي للمجموعات الى توقع النجاعة العملية للدور التاريخي للفرد . لقد وقع
اسناد هذه المهمة في آخر الأمر الى الأم والزوجة اي الى المرأة المربية إنها ينبوع
المستقبل إنها استعدادات ورقة عاطفية انها الطاقة الدفاعة للمحبة وبالتالي للقيم
الديمقراطية (19) انها رحم المجتمع المولد لمبادئ الاشتراكية والحرية « إننا تحلم
بأملنا في المستقبل ونألم من الغبن الفاحش الذي نتلقاه في حياتنا ونشعر في اعماقنا
بالحاجة الى التخلص من قيودها المرهقة ولا سبيل لهذا التخلص او بلوغ تلك الآمال
إلا متى كان ذلك ثمرة لغرس اصول التربية الفاضلة في ابنائنا ولا يتم هذا الا بتربية
وتعليم المرأة التي ينشأ الابناء في احضانها » . إن التطلعات الفردية المدعمة بالتربية
تبقى القوة الاساسية للانفتاح على المستقبل الافضل مستقبل الانعتاق او المستقبل
المطلق .

وتنفجر الاحاسيس النبيلة للمرأة اولكل فرد تكمن في داخل كيانه النفسي عواطف
المحبة والركة الخلاقة مثل الحرفيين أو العمال . فيبقى اذن الفرد هو الينبوع الاساسي
للتحول فاستنتاجات الحداد تضعنا امام التقاء لا يخلو من الغرابة وهو التقاء الام
والمستقبل .

ان هذه الرؤية لآلية لتطور المجتمع عند الحداد تعيد بصفة لا شعورية ثالث
الرؤية الانطروبولوجية الدينية التي تقيد الفرد (المؤمن) بمفهوم بحاضر الشريعة
وتعاليمها بمستقبل الآخرة وحساباتها .

فرغم أن الحداد لا يضمن التربية مفاهيم دينية فان الرسم الذهني الديني لفهم
الخطر والمستقبل هو الذي بقي يتحكم في تصورات وتصورات عبده . إن الحاضر
يبقى عند الحداد حاضر الوقائع والمشاريع المنهارة انه حاضر العدمية والتخلي والزمن
الهارب انه حسب مفهوم عبده حاضر الانحطاط ، أما المستقبل فنضمناه كل شيء
الرئاسة والثروة والاشتراكية والحرية المطلقة انه المستقبل الجامع مستقبل الخلاص
اي مستقبل استكمال الحياة الاجتماعية الذي سينفي بدوره كل مستقبل انه كل شيء
دون ان يكون شيئاً ملموساً ، انه المستقبل المنعدم الصيرورة .

أما المجتمع فهو يمثل الوسيط الزمني بين الانسان والمستقبل المطلق او ليس
المجتمع هو الاطار الذي ينمي فيه الفرد نفسه (عبده) او يهدف أحاسيسه ويهدبها
(الحداد) كما يستكمل المؤمن بواسطته ايمانه فترسخ في نفسه القيم الفاضلة
ليكون مهيناً احسن تهيئة لمواجهة مستقبله الافضل الازلي .

الخاتمة :

نستطيع اذن ان نقول بأن النظرة التجريبية المكتملة للحياة الاجتماعية منعدمة
داخل هذا النموذج الفكري إن الآلية العامة لفهم المجتمع والتاريخ كما بيننا تردنا

إلى مرجع نظري ديني ، فالحاضر الوضعي لا يمثل الا أنية عابرة
Une instantanéité fugitive لا يمكننا التحكم فيها الا بنهضة الافراد وتدعيم
مشارهم الحاملة للقيم المستقبلية والدافعة بهم نحو زمنية الكمال
La temporalité eschatologique

فلم يكن من السهل بالنسبة لهذين المفكرين بناء نسق فكري لفهم المجتمع والتاريخ
يخضع كل الاحداث الاجتماعية لمقياس السببية الموضوعية : « إن سير التفكير
التاريخي الوضعي يبدأ بفهم المطلق في شكل صيرورة » (20) لكن الآلية تنقلب داخل
هذا الاطار الفكري لاننا ننصوّر الصيرورة الاجتماعية في صيغة المطلق إن تكوين
نظرة موضوعية للتاريخ من طرف المثقفين العرب يتطلب ولادة عقلنة جديدة للزمنية
تزيح عنها المفاهيم الغيبية والمطلقة او الذاتية

ان الزمن ليس بزمن البعث المتجدد الذي يتلو الانهيار الاجتماعي وليس بالزمن
الذي ينبثق عن ارادة الافراد . فالنظرة الموضوعية للزمنية تستدعي فصل الزمن عن
الذات وعن الاسس الغيبية لادراكه كزمن مجسم في الاشياء ننتجه بانجازنا لمنتوجاتنا
فينبثق عن فعلنا وكياننا الذاتي لكي ينفصل عنا ويجسم في مواضيع متراكمة حولنا ،
وتتحول هذه المواضيع المتراكمة الى مجموعة من الحوافز . المولدة لتطور المجتمعات
عندها تظهر العلاقة بين زمنية الاحداث وزمنية الاشياء حيث تمثل هذه الاخيرة
السبب المحدد للتطور اي عندما تتبلور نظرة وضعية للتاريخ تربط التحولات
الاجتماعية الهامة بمستوى تطور المنتوجات المادية للبشر .

لكن انعدام توفر النظريات الاقتصادية داخل المجتمعات العربية وبصفة ادق تلك
التي ادركت ان الزمن كامن في الاشياء (أي زمن الانسان المتوضع في الاشياء قبل
ان يكون زمن النفوس) هو الذي منح مفكري المجتمعات العربية من الالم
بخصوصيات فعلهم الزمني .

لكن ومع هذا فاننا نلاحظ بأن بعض المسائل داخل هذا التصور المعرفي انفصلت
عن القوالب الفكرية الدينية نخص بالذكر منها النظرة الجريئة لاصلاحيات حياة
الاسرة التي صاغها الحداد والتي بادر بها قبله محمد عبده (21) او التفسير
الوصفي الدقيق للحداد لتدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي بتونس ، لكن الفهم
الجمالي للقوانين التي تتحكم في الحياة الاجتماعية وفي تطورها بقي فهما دينيا . ولم
يقبل محمد عبده « أن الاسلام هو علم الاجتماع الحقيقي ؟ » ان التشنت الفكرية
داخل هذا التصور الايديولوجي وانعدام البناء النسقي الذي يفرض حسب تعبير عبد
الله العروي الى تفكير انتقائي يفصل مواضيع للبحث عن أخرى ويستخدم في نفس
الوقت معايير نظرية متناقضة دينية ووضعية . ان هذه التلغيفية الفكرية تعكس تبعر
الواقع الذي يتفاعل معه ويعيش ضمنه المثقف العربي انه من ناحية واقع صدمة
التقاء مع الغير ، اي مع الغرب بواسطة الاستيطان الاستعماري ، فعلا إن السيطرة
الاستعمارية القائمة على هيمنة الحداثة المجسمة في الصناعة الرأسمالية والنظريات
العلمية المواكبة لها ولدت رد فعل المثقف المستعمر الذي تبطن هذه القوى الفتاكة
المغربية لكيانه الاجتماعي وحتى النفسي داخل رمزية دينية ، إنه انزعج منها حشاها
ضخم من فاعليتها فادرجها داخل بوتقة نظرية دينية (عبده) او بادر برفضها

(الحداد) ، انه اراد تملكها والسيطرة عليها لكنه لم ينجز ذلك الا في الرمز . أما الجانب الآخر من الوقائع الذي يتعلق بالحياة المدنية كالاسرة او الممارسات النضالية اي الوقائع التي بقيت في حوزة الفعل الموضوعي للمستعمر فقد انفصلت عن البوتقة الفكرية اللاهوتية لكي تنصهر داخل اطار الفهم الوضعي للاحداث الذي تفاعل بصفة ايجابية مع النماذج الفكرية الغربية اذ نراه يستعير بعض مفاهيمه من هذه الحداثة الدخيلة .

1 - « ليست التربية ما يدعي البعض انها هي ان يزعمون انهم يدمجونها في النفس حيث لا توجد كما لو ادمج البصر في العيون الكيفية » افلاطون الجمهورية (الكتاب 7 518 - 516)
2 - « الاعمال الكاملة لمحمد عبده - جمع وتحقيق محمد عمارة - الجزء الاول - بيروت 1972 ص 156 .

3 - نفس المرجع ص 158

4 - الجزء الاول من الاعمال الكاملة لمحمد عبده « الكتابات السياسية » ص 323 .
5 - الطاهر الحداد « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » ، الدار التونسية للنشر - تونس 1977 - ص 216 .

6 - نفس المرجع ص 214

7 - العمال التونسيون الطبعة الاولى مطبعة العرب بتونس ص 125 - 126 .

8 - الحداد ، امرأتنا في الشريعة والمجتمع ص 211

9 - الغزالي : « احياء علوم الدين » الجزء الخامس ص 1433 - طبعة دار الشعب القاهرة

10 - الغزالي - نفس المرجع ص 1434

11 - محمد عبده : الجزء الثالث من الاعمال الكاملة ص 187

12 - « وظيفة التربية هي إذن استكمال النفس بأداب الدين

هذا الاستكمال يجعلها تدرك موقعها من الوجود ومنزلة الحق وتنتصب عندها لنصر الحق حتى اردكت حقها في مشاركتها في الوطن والدولة والملة » - محمد عبده ، الاعمال الكاملة - الجزء الاول - ص 159 .

13 - محمد عبده نفس المرجع ص 317 .

14 - نفس المرجع الجزء الاول ص 323

15 - نفس المرجع ص 325 .

16 - الطاهر الحداد - العمال التونسيون - ص 24 .

17 - الحداد « امرأتنا في الشريعة والمجتمع الدار التونسية للنشر 1977 ص ... 217

18 - العمال التونسيون ص 24 .

19 - « اذا كان الرجال سواء بعضهم عن بعض في استعمال حق التغالب والاطفال يتألون هذا

- الحق عند بلوغ رشدهم فالمرأة هي المخلوق الوحيد الذي يبقى على الدوام ممنوعاً من هذه المساواة «
« ط حداد » امرأتنا في الشريعة والمجتمع ص 204 .
20 - عبد الله العروي أزمة المثقف العربي - طبعة ماسبيرويه باريس ص 39 .
21 - انظر الجزء الثالث من الاعمال الكاملة لمحمد عبده .